رسالة في توحيد العبادة

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

شرحها بقلم

أ.د . محمد بن عمر بن سالم بازمول

نص الرسالة[١]

قال رحمه الله تعالى:

اعلم رحمك الله: أن التوحيد الذي فرض الله على عباده، قبل فرض الصلاة والصوم، هو: توحيد عبادتك أنت؛

فلا تدعو إلا الله وحده لا شريك له؛

لا تدعو النبي و لا غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وأن المساجد لله تدعوا مع الله أحداً﴾ (الجن: ١٨).

وقال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (الكهف: ١١٠).

واعلم: أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ صفة إشراكهم: أنهم يدعون الله، ويدعون معه الأصنام، والصالحين - مثل عيسى، وأمه، والملائكة - يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ وهم يقرون: أن الله سبحانه، هو: النافع، الضار، المدبر؛ كما ذكر الله عنهم في قوله تعالى:

---

(١) مطبوعة ضمن مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب ، القسم الأول، العقيدة والآداب الإسلامية ص٣٩٨-٣٩٩.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس:٣١).

فإذا عرفت هذا؛

وعرفت: أن دعوتهم الصالحين، وتعلقهم عليهم، أنهم يقولون: ما نريد إلا الشفاعة، وأن النبي ﷺ قاتلهم ليخلصوا الدعوة لله، ويكون الدين كله لله؛

وعرفت: أن هذا هو التوحيد، الذي أفرض من الصلاة والصوم، ويغفر الله لمن أتى به يوم القيامة، ولا يغفر لمن جهله، ولو كان عابداً؛

وعرفت: أن ذلك هو الشرك بالله، الذي لا يغفر الله لمن فعله، وهو عند الله أعظم من الزنا، وقتل النفس، مع أن صاحبه يريد به التقرب من الله.

ثم مع هذا:

عرفت أمراً آخر، وهو: أن أكثر الناس ما عرف هذا؛

منهم العلماء الذين يسمونهم العلماء، في سدير، والوشم، وغيرهم، إذا قالوا: نحن موحدون الله، نعرف ما ينفع ولا يضر إلا الله، وأن الصالحين لا ينفعون ولا يضرون.

وعرفت أنهم لا يعرفون من التوحيد، إلا توحيد الكفار، توحيد

الربوبية؛ عرفت: كبر نعمة الله عليك. خصوصاً إذا تحققت: أن الذي يواجه الله، ولا يعرف التوحيد؛ أو عرفه ولم يعمل به، أنه خالد في النار، ولو كان من أعبد الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة: من الآية٧٢)﴾ (المائدة: ٧٢)، و الله أعلم، وصلى الله على محمد، وآله، وصحبه، وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشرح :

إن الحمد لله، نحمده، و نستعينه، و نستغفره، ونعوذ بالله، من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

يَاأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللهّ حَقّ تُقَاتِهِ وَلاَتَمُوتُنّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مّسْلِمُونَ

يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيْراً وَنِسَآءً وَاتَّقُوْا اللهَّ الَّذِيْ تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيْباً

يَاأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اتّقُواْ اللهّ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ

أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً.

أما بعد: فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أما بعد :

فهذا شرح رسالة في توحيد العبادة، من رسائل إمام الدعوة الإمام المجدد: محمد بن عبد الوهاب التميمي (ت١٢٠٦هـ)، صاحب كتاب التوحيد حق الله على العبيد.

سائلاً الله التوفيق والنجاح والسداد.

مقصود الرسالة:

بيان توحيد العبادة، وأنه التوحيد الذي من أجله بعث الله الرسل .

وأن الإنسان بدون توحيد العبادة لا يكون موحداً حتى ولو أقر بربوبية الله ﷻ.

بين يدي الشرح

ولتقرير أهمية توحيد العبادة أذكر النقاط التالية:

تعريف التوحيد.

وأنواع التوحيد.

وعلاقة الأنواع فيما بينها .

فأقول:

التوحيد هو: إفراد الله بالعبادة والخلوص له من الشرك، يعني: أن تعبد الله ﷻ وحده فلا تقصد بالعبادة إلا إياه وتخلص فيها له ﷻ.

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

فتوحيد العبادة أن تخلص فيها و لا تقصد غيره ﷻ في كل ما يحبه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

هذا التوحيد هو توحيد الألوهية، وهو متضمن لتوحيد الأسماء والصفات ولتوحيد الربوبية.

ومن انتقض عنده توحيد العبادة انتقض إسلامه.

كم أنواع التوحيد؟

أقول: باستقراء النصوص الشرعية وجد العلماء أن التوحيد يشتمل على الأقسام التالية:

توحيد الربوبية.

وتوحيد الألوهية.

وتوحيد الأسماء والصفات.

وقسمه بعض العلماء إلى قسمين قال:

النوع الأول: توحيد الطلب.

والنوع الثاني: توحيد العلم والمعرفة.

فتوحيد الطلب هو توحيد الألوهية.

وتوحيد العلم والمعرفة هو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وحينما يذكر العلماء أن التوحيد يشتمل على ثلاثة أنواع أو على نوعين؛ لا يريدون أن كل نوع من هذه الأنواع مستقل عن الآخر، ولا يريدون أن كل نوع من هذه الأنواع هو التوحيد المعتبر شرعًا بمفرده دون الآخر، إنما يريدون بالقسمة وبالتنويع مزيدًا من التوضيح، فهنا القسمة ليست للغيرية التي تقتضي استقلال كل قسم عن الآخر ولكن القسمة فقط من أجل البيان، كما لو نقول: الإنسان جسدٌ وروح، فبالروح وحدها ليس إنسانًا، وبالجسد وحده ليس إنسانًا.

ومثال آخر لو قلنا: الماء مكون من ذرتين من الهيدروجين،

و ذرة من الأكسجين، هل معنى هذا أن الهيدروجين ماء؟ هل معنى هذا أن الأكسجين، ماء؟

الجواب: لا؛ إنما الماء مجموع هذين العنصرين. ومقصود القسمة لما نقول: ذرتين هيدروجين وذرة أكسجين؛ لبيان المكونات لا لبيان أن كل قسم بمفرده ماء.

وكذا حينما نقول: التوحيد ثلاثة أقسام، أو ثلاثة أنواع، فهذه الأقسام الثلاثة مجموعها هو التوحيد المعتبر شرعًا.

و كل قسم بمفرده دون الآخرين ليس بتوحيد معتبر شرعًا؛ بل لابد من مجموع هذه الثلاثة فالقسمة ليست للغيرية.

ولذلك قرر المصنف يرحمه الله : أن الكفار جاءوا بتوحيد الربوبية، ولم يُقبل منهم لماذا؟ لأنهم أخلُّوا بتوحيد الألوهية.

وكذا لو جاء شخص مثلًا بتوحيد الأسماء والصفات وقال: لا أريد أن أفرد الله بالعبادة! نقول: هذا التوحيد ليس معتبرًا لابد من مجموع هذه الأنواع الثلاثة فهي قسمة للبيان

والتوضيح وليست قسمة للمغايرة واستقلال كل نوع عن الآخر.

فإن قيل: من أين أخذت هذه القسمة؟

فالجواب: أخذت بالاستقراء والتتبع لنصوص الشرع.

فإن قيل: ما العلاقة[1] بين هذه الأنواع الثلاثة؟

فالجواب: قال العلماء: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الأسماء والصفات إذن العلاقة بينهما؛ علاقة تلازم بين توحيد الربوبية والألوهية، وعلاقة تضمن بين توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية

---

(١) العلاقات الواقعة لا تخرج عن الأحوال التالية (وانظر في التداخل كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ١١٨) (٤/ ١٠٥)): الحال الأولى : علاقة تباين. الحال الثانية : علاقة تطابق. الحال الثالثة : علاقة تلازم، أن يدل الشيء على أمر آخر له خارج عنه ولازم له. الحال الرابعة: علاقة التداخل، وهي على وجهين: الوجه الأول: أن يتضمن النوع شيئاً آخر ويدل عليه دون أن يقتصر عليه. وهذا يُعبّر عنه بالعموم والخصوص المطلق. الوجه الثاني: أن يتداخل بعض أفراد النوع مع نوع آخر، ويُعبّر عنه بالعموم والخصوص من جهة أو المقيد.

والألوهية.

بمعنى أن من اعترف بربوبية الله أنه هو الخالق، الرازق، المدبر، الذي ينزل المطر، الذي يقسم الأرزاق، الذي يحيي الأرض، الذي يعني أفعاله ﷻ، من اعترف بهذا لزمه ألَّا يصرف العبادة إلا له سبحانه دون سواه؛ ولذلك الله ﷻ ألزم الله المشركين باعترافهم بتوحيد الربوبية، وكان يأمر بتوحيد الربوبية بعد تقرير توحيد الربوبية مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِّ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١-٢٢).

فأمر بالعبادة في أول الآيات، وكذلك في آخرها أمر بالعبادة بنفي الشرك ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِّ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وجعل في المنتصف الدليل على هذين الأمرين، وهم معترفون

مقرون به، فألزمهم بذلك: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾ (البقرة:٢١).

هذا معنى استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية.

ومن اعترف بأن الله ﷻ هو الإله المقصود المألوه بالعبادة دون سواه؛ فإنَّ اعترافه هذا يتضمن إقراره بأنه ﷻ واحدٌ في أسمائه وفي صفاته لا مثيل ولا شبيه له ﷻ:

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

إذ إن الإنسان لا يقصد واحدًا بالعبادة دون سواه إلا وهو يعلم أن هذا الواحد لا مثيل له في قدرته، لا مثيل له في ملكوته، لا مثيل له في صفاته وفي أسمائه، في كل ما يتعلق به ﷻ من الأسماء والصفات.

بعد هذا التمهيد ندخل إلى شرح الرسالة:

يقول المصنف رحمه الله: **"اعلم -رحمك الله- أن التوحيد الذي فرض الله على عباده قبل فرض الصلاة والصوم هو توحيد عبادتك أنت".**

الشرح:

توحيد العبادة؛ فرضه الله قبل فرض الشرائع؛ فإن أول أمر مكث الرسول ﷺ يدعو الناس إليه هو (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله). توحيد العبادة؛ فرضه الله قبل فرض الشرائع؛

فإن أول أمر مكث الرسول ﷺ يدعو الناس إليه هو (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله).

فأول واجب على العبد: الاعتراف بأن الله ﷻ وحده المقصود بالعبادة دون سواه؛ جاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ

فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهَّ"[١].

وقال لعمه أبي طالب: "يا عم؛ قل لا إله إلا الله أجادل بها عنك يوم القيامة"، فقال أبو جهل وكان حاضراً: "أتترك ما كان عليه آباؤك وأجدادك فمات على الشرك"؛ ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦)[٢].

فالتوحيد طولب به الناس قبل أن تُفرض الصلاة، وقبل أن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، حديث رقم (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، حديث رقم (٢٢).

(٢) قال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢١٥): "أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب وكذا نقل إجماعهم على هذا الزجاج وغيره وهى عامة فانه لا يهدى ولا يضل الا الله تعالى قال الفراء وغيره قوله تعالى من أحببت يكون على وجهين أحدهما معناه من أحببته لقرابته والثانى من أحببت أن يهتدى"اهـ.

تُفرض الزكاة، وقبل أن يفرض الحج، بل كان هو الموضوع الأصلي الذي كان الكلام فيه خلال ثلاث عشرة سنة من زمن البعثة النبوية، كان يدعو إلى عبادة الله وحده دون سواه وهذا معنى قول المصنف يرحمه الله: "اعلم -رحمك الله- أن التوحيد الذي فرض الله على عباده قبل فرض الصلاة والصوم وهو توحيد عبادتك أنت"؛

فموضوع الإصلاح الأول والأساس هو عبادة الله وتوحيده، وهذه هي دعوة الأنبياء؛ إذ كل نبي أرسله الله إلى قومه بهذا الموضوع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦).

فهذا نوح عليه السلام يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:٥٩).

وهذا هود عليه الصلاة والسلام يقول تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:٦٥).

وهذا صالح عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهَّ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهَّ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٧٣).

وهذا شعيب عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥).

وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:١٦).

وهذا ما فعله الرسول ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن. عن ابْنَ عَبَّاس يَقُولُ : "لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ"[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب دعاء النبي ﷺ، حديث رقم (٧٣٧٢)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الدعاء إلى التوحيد وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩).

وهذا هو ما خلق الله تعالى الجن والإنس له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

فالذين يدعون إلى الإصلاح ويجعلون دعوتهم الإصلاحية في القضايا السياسية أو في القضايا الاقتصادية، أو توزيع الثروة، أو نحو ذلك فهؤلاء عملوا عملاً ليس عليه أمر الرسول ﷺ فهو رد عليهم.

فمن أراد الإصلاح ولم يجعل هذا هو موضوعه ومقصده، فقد خالف منهج الأنبياء ، وترك ما عليه الإصلاح الشرعي عند أهل السنة والجماعة.

وانظر في من يزعم الإصلاح ويتسمى باسمه هذه الأيام، تجده مخالفاً لهذا الضابط اشد المخالفة، فتوزيع الثروة هجيراه ليل نهار، و منازعة الأمر أهله، ديدنه، فلا شأن له مع هذا الضابط أصلاً، إلا من باب ذر الرماد على العيون كما يقولون!

فالمطالبة بالتوحيد قبل كل شيء. وهكذا كل داعٍ يدعو

الناس يبدأ أول ما يبدأ ويهتم أكثر ما يهتم بموضوع التوحيد، توحيد الله وحده ﷻ بالعبادة. فأول واجب على العبد: الاعتراف بأن الله ﷻ وحده المقصود بالعبادة دون سواه؛ جاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ"(١).

وقال لعمه أبي طالب: "يا عم؛ قل لا إله إلا الله أجادل بها عنك يوم القيامة"، فقال أبو جهل وكان حاضراً: "أتترك ما كان

---

(١)[أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، حديث رقم (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، حديث رقم (٢٢).].

عليه آباؤك وأجدادك فمات على الشرك"؛ ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦).[قال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢١٥): "أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب وكذا نقل اجماعهم على هذا الزجاج وغيره وهى عامة فانه لا يهدى ولا يضل الا الله تعالى قال الفراء وغيره قوله تعالى من أحببت يكون على وجهين أحدهما معناه من أحببته لقرابته والثانى من أحببت أن يهتدى"اهـ]. توحيد العبادة؛ فرضه الله قبل فرض الشرائع؛

فإن أول أمر مكث الرسول ﷺ يدعو الناس إليه هو (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله).

فأول واجب على العبد: الاعتراف بأن الله ﷻ وحده المقصود بالعبادة دون سواه؛ جاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ

فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ"". [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، حديث رقم (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، حديث رقم (٢٢).].

وقال لعمه أبي طالب: "يا عم؛ قل لا إله إلا الله أجادل بها عنك يوم القيامة"، فقال أبو جهل وكان حاضراً: "أتترك ما كان عليه آباؤك وأجدادك فمات على الشرك"؛ ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦).[قال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢١٥): "أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب وكذا نقل اجماعهم على هذا الزجاج وغيره وهى عامة فانه لا يهدى ولا يضل الا الله تعالى قال الفراء وغيره قوله تعالى من أحببت يكون على وجهين أحدهما معناه من أحببته لقرابته والثانى من أحببت

أن يهتدى"اهـ]

فالتوحيد طولب به الناس قبل أن تُفرض الصلاة، وقبل أن تُفرض الزكاة، وقبل أن يفرض الحج، بل كان هو الموضوع الأصلي الذي كان الكلام فيه خلال ثلاث عشرة سنة من زمن البعثة النبوية، كان يدعو إلى عبادة الله وحده دون سواه وهذا معنى قول المصنف يرحمه الله: "اعلم -رحمك الله- أن التوحيد الذي فرض الله على عباده قبل فرض الصلاة والصوم وهو توحيد عبادتك أنت".

فموضوع الإصلاح الأول والأساس هو عبادة الله وتوحيده، وهذه هي دعوة الأنبياء؛ إذ كل نبي أرسله الله إلى قومه بهذا الموضوع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦).

فهذا نوح عليه السلام يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:٥٩).

وهذا هود عليه الصلاة والسلام يقول تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:٦٥).

وهذا صالح عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهَّ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهَّ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٧٣).

وهذا شعيب عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ

أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥).

وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:١٦).

وهذا ما فعله الرسول ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن.

عن ابْنَ عَبَّاس يَقُولُ : "لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ".[أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب دعاء النبي ﷺ، حديث رقم (٧٣٧٢)، ومسلم في

كتاب الإيمان باب الدعاء إلى التوحيد وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩).]

وهذا هو ما خلق الله تعالى الجن والإنس له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

فالذين يدعون إلى الإصلاح ويجعلون دعوتهم الإصلاحية في القضايا السياسية أو في القضايا الاقتصادية، أو توزيع الثروة، أو نحو ذلك فهؤلاء عملوا عملاً ليس عليه أمر الرسول ﷺ فهو رد عليهم.

فمن أراد الإصلاح ولم يجعل هذا هو موضوعه ومقصده، فقد خالف منهج الأنبياء ، وترك ما عليه الإصلاح الشرعي عند أهل السنة والجماعة.

وانظر في من يزعم الإصلاح ويتسمى باسمه هذه الأيام، تجده مخالفاً لهذا الضابط اشد المخالفة، فتوزيع الثروة هجيراه ليل نهار، و منازعة الأمر أهله، ديدنه، فلا شأن له مع هذا الضابط

أصلاً، إلا من باب ذر الرماد على العيون كما يقولون!

فالمطالبة بالتوحيد قبل كل شيء. وهكذا كل داعٍ يدعو الناس يبدأ أول ما يبدأ ويهتم أكثر ما يهتم بموضوع التوحيد، توحيد الله وحده ﷻ بالعبادة. فالتوحيد طولب به الناس قبل أن تُفرض الصلاة، وقبل أن تُفرض الزكاة، وقبل أن يفرض الحج، بل كان هو الموضوع الأصلي الذي كان الكلام فيه خلال ثلاث عشرة سنة من زمن البعثة النبوية، كان يدعو إلى عبادة الله وحده دون سواه وهذا معنى قول المصنف يرحمه الله: "اعلم -رحمك الله- أن التوحيد الذي فرض الله على عباده قبل فرض الصلاة والصوم وهو توحيد عبادتك أنت". فموضوع الإصلاح الأول والأساس هو عبادة الله وتوحيده، وهذه هي دعوة الأنبياء؛ إذ كل نبي أرسله الله إلى قومه بهذا الموضوع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦).

فهذا نوح عليه السلام يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:٥٩). وهذا هود عليه الصلاة والسلام يقول تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:٦٥).

توحيد العبادة؛ فرضه الله قبل فرض الشرائع؛

فإن أول أمر مكث الرسول ﷺ يدعو الناس إليه هو (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله).

فأول واجب على العبد: الاعتراف بأن الله ﷻ وحده المقصود بالعبادة دون سواه؛ جاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ

وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ". [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، حديث رقم (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، حديث رقم (٢٢).].

وقال لعمه أبي طالب: "يا عم؛ قل لا إله إلا الله أجادل بها عنك يوم القيامة"، فقال أبو جهل وكان حاضراً: "أتترك ما كان عليه آباؤك وأجدادك فمات على الشرك"؛ ونزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص:٥٦).[قال النووي في شرح مسلم (٢/ ٢١٥): "أجمع المفسرون على أنها نزلت فى أبى طالب وكذا نقل اجماعهم على هذا الزجاج وغيره وهى عامة فانه لا يهدى ولا يضل الا الله تعالى قال الفراء وغيره قوله تعالى من أحببت يكون على وجهين أحدهما معناه من أحببته لقرابته والثانى من أحببت أن يهتدى"اهـ]

فالتوحيد طولب به الناس قبل أن تُفرض الصلاة، وقبل أن تُفرض الزكاة، وقبل أن يفرض الحج، بل كان هو الموضوع الأصلي الذي كان الكلام فيه خلال ثلاث عشرة سنة من زمن البعثة النبوية، كان يدعو إلى عبادة الله وحده دون سواه وهذا معنى قول المصنف يرحمه الله: "اعلم -رحمك الله- أن التوحيد الذي فرض الله على عباده قبل فرض الصلاة والصوم وهو توحيد عبادتك أنت".

فموضوع الإصلاح الأول والأساس هو عبادة الله وتوحيده، وهذه هي دعوة الأنبياء؛ إذ كل نبي أرسله الله إلى قومه بهذا الموضوع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل:٣٦).

فهذا نوح عليه السلام يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى

قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:٥٩).

وهذا هود عليه الصلاة والسلام يقول تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:٦٥).

وهذا صالح عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٧٣).

وهذا شعيب عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥).

وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَّ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:١٦).

وهذا ما فعله الرسول ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن.

عن ابْنَ عَبَّاس يَقُولُ : "لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَّ تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ".[أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب دعاء النبي ﷺ، حديث رقم (٧٣٧٢)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الدعاء إلى التوحيد وشرائع الإسلام، حديث

رقم (١٩).]

وهذا هو ما خلق الله تعالى الجن والإنس له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

فالذين يدعون إلى الإصلاح ويجعلون دعوتهم الإصلاحية في القضايا السياسية أو في القضايا الاقتصادية، أو توزيع الثروة، أو نحو ذلك فهؤلاء عملوا عملاً ليس عليه أمر الرسول ﷺ فهو رد عليهم.

فمن أراد الإصلاح ولم يجعل هذا هو موضوعه ومقصده، فقد خالف منهج الأنبياء ، وترك ما عليه الإصلاح الشرعي عند أهل السنة والجماعة.

وانظر في من يزعم الإصلاح ويتسمى باسمه هذه الأيام، تجده مخالفاً لهذا الضابط اشد المخالفة، فتوزيع الثروة هجيراه ليل نهار، و منازعة الأمر أهله، ديدنه، فلا شأن له مع هذا الضابط أصلاً، إلا من باب ذر الرماد على العيون كما يقولون!

فالمطالبة بالتوحيد قبل كل شيء. وهكذا كل داعٍ يدعو الناس يبدأ أول ما يبدأ ويهتم أكثر ما يهتم بموضوع التوحيد، توحيد الله وحده ﷻ بالعبادة.

وهذا صالح عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف:٧٣). وهذا شعيب عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥). وهذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(العنكبوت:١٦). وهذا ما فعله الرسول ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن. عن ابْنَ عَبَّاس يَقُولُ : "لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ".[أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب دعاء النبي ﷺ، حديث رقم (٧٣٧٢)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الدعاء إلى التوحيد وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩).] وهذا هو ما خلق الله تعالى الجن والإنس له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦). فالذين يدعون إلى الإصلاح ويجعلون دعوتهم الإصلاحية في القضايا السياسية أو في القضايا الاقتصادية، أو

توزيع الثروة، أو نحو ذلك فهؤلاء عملوا عملاً ليس عليه أمر الرسول ﷺ فهو رد عليهم. فمن أراد الإصلاح ولم يجعل هذا هو موضوعه ومقصده، فقد خالف منهج الأنبياء ، وترك ما عليه الإصلاح الشرعي عند أهل السنة والجماعة.

وانظر في من يزعم الإصلاح ويتسمى باسمه هذه الأيام، تجده مخالفاً لهذا الضابط اشد المخالفة، فتوزيع الثروة هجيراه ليل نهار، و منازعة الأمر أهله، ديدنه، فلا شأن له مع هذا الضابط أصلاً، إلا من باب ذر الرماد على العيون كما يقولون!

فالمطالبة بالتوحيد قبل كل شيء. وهكذا كل داعٍ يدعو الناس يبدأ أول ما يبدأ ويهتم أكثر ما يهتم بموضوع التوحيد، توحيد الله وحده ﷻ بالعبادة.

قول المصنف يرحمه الله: "عبادتك أنت".

يعني: ألا تقصد بعمل من الأعمال إلا وجه الله ﷻ.

فهذا أول ما يُبدأ به أن تعلم الناس أنهم لابد أن يخلصوا لله

ﷻ وحده العبادة دون سواه.

وقولـه: **"عبادتـك أنـت"** معلـوم أن العبـادة ليـست مـن اختراع العبد، إنما يتبع فيها ما جاء به الشرع، وعليه؛ فإن هذه الجملة من كلام المصنف يرحمه الله تتضمن الإشارة إلى الشرطين اللذين لا يُقبل العمل بدونهما:

الشرط الأول: ألا تعبد إلا الله.

الشرط الثاني: أن تعبد الله بما شرع.

أما: "ألا تعبد إلا الله" فهذا فيه آيات وأحاديث كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩).

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر: ٦٥).

وقوله تعال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (البينة:٥).

ومن الأحاديث: قوله ﷺ في الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : "أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"(١).

ومنه: ما جاء عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: "أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (٢٩٨٥).

يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا..." الحديث "[١].

فالأصل هو التوحيد، والكفر والانحراف عن التوحيد أمر طارئ على الخلق بسبب الشياطين، وبسبب النفس الأمارة بالسوء.

وأما أن تعبد الله بما شرع؛ فإن هذا هو العلم ؛ ودليله قول الرسول ﷺ: **"من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد"**[٢].

والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ يعني: متابعاً فيع للشرع ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف: ١١٠)؛ فاشتملت الآية على الأصلين اللذين يقوم عليهما الدين:

الأصل الأول: أن لا نعبد إلا الله.

---

(١).[أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، حديث رقم (٢٨٦٥).]

(٢)

الأصل الثاني: أن لا نعبد الله إر بما شرع.

وهما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

قول المصنف يرحمه الله: "فلا تدعو إلا الله وحده لا شريك له، لا تدعو النبي ﷺ ولا غيره"

الشرح:

لا تدعو إلا الله وحده ﷻ لا شريك له، هذا حقيقة التوحيد، والتنصيص على دعاء النبي في قول المصنف يرحمه الله: "لا تدعو النبي ﷺ"؛ لأن هذا الغالب الذي حصل في جماعات من الناس أنهم يغلون في محبة الرسول ﷺ غلوًّا يصل بهم إلى حد الشرك به ﷻ.

فالتنصيص ليس للحصر، إنما حكاية للواقع، وخرج مخرج الغالب.

ودعاء الرسول ﷺ على صور، وهي التالية:

الأولى : أن يتوجه بالدعاء للرسول ﷺ كدعاء الله ﷻ

فيقول: يا رسول الله اغفر لي!! يا رسول الله ارحمني!! يا رسول الله اعمل لي كذا!! افعل لي كذا، هذا شرك أكبر مخرج من الملة، إذ إنك سألت الرسول ﷺ بذاته فيما لا يقدر عليه إلا الله، هذا النوع شرك أكبر مخرج من الملة، لأنك صرفت الدعاء لغير الله، فهذا شرك في العبادة.

الثانية: أن تسأل الله بجاه النبي ﷺ فهذا ليس شركا مخرجاً من الملة، ولكنه حرام وبدعة، لا يجوز، وهو خلاف ما جاء به الرسول ﷺ، وبالتالي هو ردٌّ على صاحبه؛ **"من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد"**[١].

الثالثة: أن تسأل الله ﷻ بدعاء الرسول في حياته، "اللهم إنا كنا نستسقي برسول الله فتسقنا؛ اللهم فإنا نستسقيك بعم رسول الله فاسقنا"[٢]. فكانوا يستسقون بدعاء الرسول ﷺ في حياته، ثم

---

(١)

(٢)

استسقوا بدعاء العباس في حياته .

إذن دعاء الرسول ﷺ على ثلاثة أنواع:

١- نوع شركي؛ وهو: دعاء الرسول ﷺ بذاته، فيتوجه بالدعاء إليه ﷺ ولا يتوجه بالدعاء إلى الله ﷻ؛ فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

٢- **النوع الثاني**: دعاء بالرسول ﷺ بِدْعيٌّ بأن يسأل الله بجاه النبي ﷺ؛ فهذا بدعي حرام.

٣- **النوع الثالث**: دعاء الله ﷻ بدعاء الرسول ﷺ وهو حيٌّ؛ فهذا جائز في حياته ﷺ، أما بعد مماته فإنه غير ممكن، وهو غير جائز شرعاً. فإن سأل الرسول ﷺ انتقل إلى النوع الأول الذي هو سؤال الله بذاته ﷺ.

يبقى نوع رابع وهو من باب التوسل المشروع أن تسأل الله بمحبة الرسول، والعلماء يقررون أن التوسل المشروع ثلاثة أنواع:

١- أن تتوسل إلى الله ﷻ بأسمائه وصفاته.

٢- أن تتوسل إلى الله ﷻ بالعمل الصالح كقصة أصحاب الغار.

٣- أن تتوسل إلى الله ﷻ بدعاء الصالحين الأحياء.

هذه ثلاثة أنواع من التوسل المشروع، وإذا توسلت في دعائك بمحبتك للرسول ﷺ و باتباعك للرسول ﷺ؛ فهذا التوسل مشروع، وهو توسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح كقصة أصحاب الغار: ومحبة الرسول من أحسن العمل الصالح إذا كانت محبة شرعية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران:٣١)، والمحبة الشرعية، محبته ﷺ باتباعه؛

ومن ذلك ألا تغلوا فيه غلو اليهود والنصارى فإنما هو عبد الله ورسوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: من الآية١١٠)، الفرق بيني وبينكم أنه يوحى إليَّ ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ

وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّـهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَـلاً صَـالِحاً وَلَا يُـشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ (الكهف: ١١٠).

وقـول المـصنف رحمـه الله: "ولا غـيره" أي: ممـن يعظمـه الناس ويشركون بالله ﷻ به من سائر الخلق؛ خاصة ما يجعـل مـن أضرحة ومشاهد وقبور وأولياء ونحو ذلك فإن هـذا كلـه صرف العبادة لغير الله، منها:

الطواف بالقبور كالطواف بالكعبة، واعتقاد أن هـذا عبـادة وقربة.

سؤال الميت صاحب القبر.

الذبح للقبر شرك.

وأقصد بالشرك : الشرك الأكبر، المخرج من الملة.

قول المصنف يرحمه الله: "كما قال تعـالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعو النبي تدعوا مع الله أحداً﴾ (الجن: ١٨).

وقال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله

واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (الكهف: ١١٠)٠."

الشرح :

قوله: "كما قال تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً﴾ (الجن: ١٨)."اهـ

هذا محل الشاهد لما تقدّم من قوله: "فلا تدعو إلا الله وحده لا شريك له؛ لا تدعو النبي ﷺ و لا غيره"، دليل ذلك هذه الآية ومحل الشاهد فيها قوله تعالى: ﴿ فلا تدعو مع الله أحداً﴾.

وذكر الدعاء لأن الدعاء هو العبادة ، كما جاء عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول: الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠)" أخرجه أحمد

وأبـوداود و الترمـذي[١]. إذ في الـدعاء غايـة المحبـة والخـوف والخضوع والتذلل، والانقياد والإقبال بالطاعة لله ﷻ. وتتحقق فيه جميع أنواع الطاعات: القولية والعملية والاعتقادية؛

فالدعاء من جهة أنه تمجيد وثناء، وطلب، ومسألة؛ فهذا قول.

والدعاء من جهة أنه هيئة ومحل؛ فهذا عمل.

والدعاء من جهة أنه قصد وتوجه واعتقاد؛ فهذا اعتقاد.

فالدعاء هو العبادة إذ فيه جميع أنواع العبادة: القولية، والفعلية، والاعتقادية.

ودعاء الله ﷻ على نوعين عند العلماء، هما:

النوع الأول: دعاء التمجيد والتعظيم والثناء، ومنه: قوله ﷺ: "خير ما قلت أنا والنبيين من قبلي -أفضل الدعاء يوم عرفة-

---

(١) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح . قال الشيخ الألباني : صحيح

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير"[١]؛ فسماه دعاء وليس فيه مسألة ولا طلب.

ومنه: دعاء السوق: "إذا دخل أحدكم السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير. أعطي ألف ألف حسنة ومحي عنه..." إلخ الحديث[٢].

ومنه: دعوة ذي النون: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين".

هذا كله يسمى دعاء لأنه من النوع الأول: التعظيم، والثناء، والتمجيد له ﷻ.

النوع الثاني من الدعاء هو: دعاء المسألة والطلب، أن

---

(١)

(٢)

تقول: اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم أعطني كذا، اللهم يسر لي كذا، اللهم أبعد عني كذا من السوء، اللهم قرب لي كذا من الخير، ...إلخ.

هذه دعاء المسألة والطلب، والشائع عند العامة إلا النوع الثاني، ولا يعرفون أن النوع الأول دعاء.

فائدة وتنبيه:

كلمة "آمين" التي من السنة قولها آخر الدعاء لها معنيان:

المعنى الأول : يا أله.

المعنى الثاني: اللهم استجب.

فإذا قال الإمام في قنوت الوتر أو في قنوت النازلة دعاء هو من باب التمجيد والتعظيم والثناء، تقول: آمين، ويكون معناها يا الله، وإذا قال الإمام في دعاء القنوت أو الوتر: اللهم أعطنا، اللهم هب لنا، يعني مسألة وطلب، تقول: آمين، ويكون معناها، أي: اللهم استجب.

ومنه تعلم أن ما ابتدعه بعض الناس أثناء دعاء الإمام من قولهم في مواضع الثناء والتمجيد "سبحانك"، لا أصل له، فإنه لم ينقل عن الصحابة ﷺ، إذ كانوا يؤمنون خلف الرسول ﷺ في الدعاء، أنهم يقولون خلف الدعاء إلا كلمة "آمين".

لأن آمين معناها: يا ألله، إذا كانت دعاء تمجيد وتعظيم، ومعناها: اللهم استجب إذا كانت دعاء مسألة وطلب ولكن الناس إذا جاء في الدعاء: "يا أرحم الراحمين"، قالوا بدلاً من "آمين": سبحانك. وهذا لم يرد في هذا الموضع والله اعلم.

قال: ﴿فلا تدعو مع الله أحداً﴾ (الجن:١٨)، أي: لا تصرفوا شيئًا من العبادة لغير الله ﷻ، ولذلك ذم الله الكفار بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً للّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ١٦٥). فلا يجوز أن تساوي بغير الله ﷻ شيئاً؛

فلا تخف من أحد كخوفك من الله، هذا شرك.

و لا تحب أحداً كحب الله ، هذا شرك.

طبعاً الخوف الجبلي والمحبة الطبيعية التي لا تصل إلى حد التذلل والخضوع للمحبوب بما يخالف شرع الله ليست مقصودة هنا.

فمن ساوى غير الله بالله فقد أشرك، وصار عبداً لهذا الذي ساواه بالله وقد قال ﷺ فيما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال : "تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض) أخرجه البخاري.

فالتوحيد أن تفرد الله سبحانه وتعالى، تفرده بالعبادة، ولا تصرف العبادة إلا له وحده دون سواه ﴿فلا تدعو مع الله أحداً﴾

كلمة ﴿**المساجد**﴾ أي: كل موضع يسجد فيه الإنسان ويصلي فيه الإنسان على أساس (**ال**) للاستغراق. ويصلح أن تكون (ال) للعهد والمراد بالمساجد: البيوت التي وُقفت لأداء

الصلوات الخمس.

قال: وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف:١١٠).

بعد أن قرر المصنف يرحمه الله : الدعوة إلى التوحيد وأن هذا المقصود هو أعظم مقصود في هذا الدين : توحيد الله وحده ﷻ دون سواه؛ انتقل ليبين حقيقة كفر وشرك المشركين؛ لأن بعض الناس يتوهم أنه ما في شرك إلا إذا أنت أنكرت الله: أنكرت وجود الله، وبعض الناس يتوهم أن الشرك هو فقط أن تقصد غير الله بالعبادة على سبيل الإفراد.

يظن بعض الناس هذا الظن، فالمصنف يرحمه الله يريد أن يبين خطأ ذلك.

قال المصنف رحمه الله: " واعلم: أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله إشراكهم: أنهم يدعون الله، ويدعون معه الأصنام، والصالحين؛ مثل عيسى، وأمه، والملائكة؛ يقولون: هؤلاء

شفعاؤنا عند الله؛ وهم يقرون: أن الله سبحانه، هو: النافع، الضار، المدبر؛ كما ذكر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت﴾ الآية (يونس: ٣١).".

الشرح:

إن الكفار الذين كفرَّهم الله ﷻ وحكم بكفرهم وبأنهم مشركون ما كانوا منكرين لله، ما كانوا منكرين لوجود الله، بل ما كانوا منكرين لربوبية الله ﷻ ومع هذا الله وصفهم بالشرك؛ لأنهم أدخلوا في العبادة مع الله غيره فكانوا يصرفون العبادة لهذه الآلهة مع الله.

كان المشركون يحجون - وهذا من بقايا الحنفية ملة إبراهيم فيهم - ويقولون في التلبية: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك".

بل نقل الله عنهم أنهم يقولون: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهَّ زُلْفَى إِنَّ اللهَّ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر:٣).

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُّ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت:٦١) .

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُّ قُلِ الْحَمْدُ للهِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت:٦٣).

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُّ قُلِ الْحَمْدُ للهِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان:٢٥).

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُّ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِّ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُّ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ

قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر:٣٨).

وقال ﷻ:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف:٩).

وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف:٨٧).

فهم معترفون بالله، مقرون بأن الله ﷻ هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، النافع، الضار...إلخ، ولكن مع هذا وصفهم الله ﷻ بأنهم كفار مشركون؛ لأنهم صرفوا من العبادة شيئًا لغير الله، و أشركوا مع الله غيره في هذه العبادة.

ففي هذا رد على الذين يظنون أن التوحيد هو مجرد الاعتراف بوجود الله وأنه الرازق المحي المميت؛ لأن العرب زمن البعثة كانوا مقرين بوجود الله وبأنه الخالق الرازق ومع ذلك وصفهم الله ﷻ بأنهم كفار مشركين، إذ صرفوا العبادة لغير الله.

وفيه رد على الذين يظنون أن الكافر والمشرك هو الذي

يصرف العبادة أصلًا لغير الله فقط؛ فكل هؤلاء كفار مشركون ؛ إذ لا ينفع الإقرار بوجود الله بدون الإقرار باستحقاقه سبحانه وتعالى بالعبادة وحده دون سواه.

وفي الآيات تقرير لتوحيد العبادة بالإلزام، وبيان ذلك : إذا أنتم تُقرُّون أن الله هو المدبر وهو الذي ينفعكم وهو الذي يضركم وهو الذي يرزقكم؛ فكيف تشركون معه في العبادة غيره ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؟! أَمَا تخافون الله ﷻ؟! تشركون معه في العبادة غيره ممن لا يستطيع أن يخلق شيئًا ولا يستطيع أن يخلق شيئًا ولا يستطيع أن يفعل شيئًا، ولا يستطيع أن يدبر شيئًا.

وهذا ما صنعه سيدنا إبراهيم ﷺ في إيصال هذا الموضوع إلى قومه، ماذا صنع؟ كسر الأصنام كلها التي كان يعبدها قومه، انتظر يومًا من أيام عيدهم واجتماعهم وخروجهم بعيدًا عن مكان الآلهة التي يعبدونها -الأصنام- فكسرها جميعًا وأبقى واحدًا وعلق عليه الفأس وجلس، لما جاء قومه جلسوا يتفكرون

من كسر آلهتنا؟ من دمّرها؟ من حطمها؟

فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ.

قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ.

قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟

قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ.

فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ.

ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ.

قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ.

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٠- ٦٧).

فعرفوا أنهم قامت عليهم الحجة فطردوا إبراهيم عليه السلام وأمعنوا فيما هم فيه من الباطل.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ

الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء: ٦٨- ٧٠).

فائدة:

كان العرب يقرون بوجود الله وأنه الخالق الرازق المحي المميت، وكان فيهم من ينكر البعث بعد الموت، وقد ألزمهم الله ﷻ بإقرارهم بأنه الخالق الرازق في الابتداء على قدرته على البعث بعد الموت في الانتهاء، قال تبارك وتعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾.

قال المصنف رحمه الله:

" فإذا عرفت هذا؛

وعرفت: أن دعاءهم الصالحين، وتعلقهم عليهم، أنهم يقولون: ما نريد إلا الشفاعة، وأن النبي ﷺ قاتلهم ليخلصوا الدعاء لله، ويكون الدين كله لله؛

وعرفت: أن هذا هو التوحيد، الذي أفرض من الصلاة والصوم، ويغفر الله لمن أتى به يوم القيامة، ولا يغفر لمن جهله، ولو كان عابداً؛

وعرفت: أن ذلك هو الشرك بالله، الذي لا يغفر الله لمن فعله، وهو عند الله أعظم من الزنا، وقتل النفس، مع أن صاحبه يريد به التقرب من الله" .

الشرح :

التوحيد ثلاثة أنواع:

توحيد الألوهية.

وتوحيد الربوبية.

وتوحيد الأسماء والصفات.

والشرك يقابل التوحيد؛

فالشرك الذي يقابل توحيد الربوبية : أن تعتقد أن هناك من يتصرف في الكون غير الله. فإذا اعتقدت ذلك أشركت بالله شركًا أكبر من جهة توحيد الربوبية.

فمن اعتقد أن في الكون من يخلق غير الله، أو يحي أو يميت غير الله، أو يرزق غير الله، أو بيده النفع أو الضر غير الله، أو ينزل الغيث غير الله؛ أو يتصرف في الكون بغير ذلك من أفعال الله ﷻ، فقد أشرك بالله في ربوبيته شركًا مخرجًا من الملة.

والشرك المقابل لتوحيد الألوهية: أن تصرف شيئًا من العبادة لغير الله فإذا تألـه -أي: قصد- أحد بعبادته غير الله ﷻ فقد أشركت بالله شركًا أكبر مخرجًا من الملة، وهذا الشرك الأكبر

من جهة ألوهية الله ﷻ.

فهو أن يصرف العبد شيئًا من العبادة لغير الله.

فمن طاف بالقبر تعبداً للقبر أو لصاحبه، فقد أشرك بالله شركًا أكبر خرج به من الدين.

ومن ذبح للقبر، أو نذر له أو لصاحبه، أو طاف بشجرة معتقدًا أنه يتعبد بذلك للشجرة أو لهذا القبر، أو لصاحبه، فقد أشرك في عبادته، وكفر كفراً مخرجاً من الملة.

والشرك المقابل لتوحيد الأسماء والصفات: أن يساوي العبد غير الله بالله في أسمائه وصفاته ﷻ.

فمن جعل لله سمياً في أسمائه وصفاته فقد أشرك شركًا أكبر من جهة توحيد الأسماء والصفات، الذي فيه إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به سبحانه، من الجمال والجلال والكمال.

فالشرك يقابل التوحيد بأنواعه.

وإذا كان الشرك منه أكبر ومنه أصغر؛

فإن الشرك الأصغر المقابل لشرك الربوبية الأكبر : أن يحصل هذا بالقول بدون اعتقاد أو أن يحصل هذا بالقول والاعتقاد بدون مساواة فهذا شرك أصغر. أما إذا حصل مع اعتقاد المساواة والتصرف الكامل فهذا شرك أكبر.

مثاله: من قال: أُمطرنا بنوء كذا وكذا. أو قال فلان يتصرف بإيصال النفع والضر إليّ. هذا شرك القول وهذا الكفر كفر أصغر.

والشرك الأصغر في الألوهية : من أشرك مع الله غيره في العبادة ولكن يعتقد أن المقصود الأول والأكبر والأولى هو الله ﷻ، ولكن حصل منه يسيراً قصدا لبعض الناس يرائي أمامهم بالصلاة؛ هو يصلي لله ويعتقد أن الصلاة لله ولكن يزين الصلاة أمامهم فهذا قد أشرك من جهة توحيد الألوهية شركًا أصغر لا يخرج من الملة لأنه أصلًا بالصلاة لا يقصد إلا الله وإنما طرأ عليه

الرياء في أثنائها أو في أولها يزينها لهؤلاء لكن لا يقصدهم بها، هو لا يصرف الصلاة لهم، إنما يزينها لهم، فهذا الشرك الأصغر وهو الرياء.

وقد أشار ابن قيم الجوزية أن الذي يعتبر شرك أصغر في العبادة هو يسير الرياء، ومفهومه أن كثير الرياء يخرج بصاحبه إلى الشرك الأكبر.

أما الشرك في أسماء الله وربوبيته أن تصف غير الله أو تسمي غير الله بما لا يليق إلا بالله ﷻ فإذا سميت غير الله أو وصفته بما هو لله ﷻ فقد جعلت سميًّا وجعلت لله ندًّا مساويًا له في صفة الكمال التي الأصل أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) ، فإذا اعتقدت أن هناك غير الله كالله في هذه الأسماء أو في هذه الصفات، فأنت قد أشركت بالله شركًا أكبر تخرج به من الملة من جهة الأسماء والصفات، أما إذا أطلقت الاسم ولم تقصد أنه مساوٍ إنما الله أعظم والله أعلى، وإن صدر

منك مثل هذا فأنت قد أشركت بالله من جهة الأسماء والصفات شركًا أصغر، وقد يكون بالقول مثل:

قول الرجل: **"ما شاء الله وشئت"**.

أو "ما شاء الله وشاء فلان".

أو "يا محمد (يعني: في حياته ﷺ) إنا نستشفع بك إلى الله، ونستشفع بالله إليك.

ونحو ذلك هذا كله يدخل من باب الشرك الأصغر في الأسماء والصفات إذا كان مجرد لفظ باللسان.

وليلاحظ أن هذا الحكم على النوع، و لا ينزل على المعين إلا بعد إقامة الحجة بثبوت الشروط وانتفاء الموانع.

والمقصود بثبوت الشروط :

- حصول العلم المنافي للجهل.
- حصول الإرادة المنافية لعدمها.

والمقصود بانتفاء الموانع، الأمور التالية:

- انتفاء الجهل المنافي للعلم.

- انتفاء الخطأ .

- انتفاء الإرادة بالإكراه.

- انتفاء التأويل.

ومن بلغه الإسلام بصورة صحيحة أو أمكنه السؤال عنه ومعرفته على الحقيقة ففرط وتساهل وصدرت منه أمور من شرك العبادة، فإنه لا يعذر بجهله، لأن محل العذر بالجهل إنما يكون بعد بذل ما يمكنه للتعلم ومعرفة الحق، و لا يكون مسلمًا ولا يعذر بالجهل في هذه الحال؛ لأن حقيقة الإسلام هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

ومعنى هذا أنه فرط في معرفة معنى الشهادة؛

وهي أصل الدين. وحقيقته: توحيد العبادة لله وحده دون سواه. فهو لم يحقق الدين أصلاً، والله المستعان.

و الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

١- أن الشرك الأكبر مخرج من الملة، والشرك الأصغر غير مخرج من الملة.

٢- الشرك الأكبر يحبط جميع العمل، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥)، بينما الشرك الأصغر لا يحبط إلا العمل الذي حصل فيه لا جميع عمله.

٣- الشرك الأكبر صاحبه خالد مخلد في النار، بينما الشرك الأصغر لا، صاحبه ليس بخالد مخلد في النار.

٤- الشرك الأكبر لا يغفره الله ﷻ، والشرك الأصغر اختلف العلماء فيه فمنهم من قال: يغفره الله ﷻ وهو تحت المشيئة، ومنهم من قال: لا يغفره الله ﷻ ولكن قد يستر ويزول أثره بكثرة الحسنات، أو بالأمور التي وردت في الشرع أنها تغالب السيئات فتجعل العبد في منجاة من هذه السيئات مثل أن يكثر الإنسان من عمل الحسنات والطاعات أو بالشفاعة أو برحمه الله

أو نحو ذلك مما ذكره أهل العلم.

هـذه أربعـة أمـور يفـرق فيهـا بـين الـشرك الأكـبر والـشرك الأصغر:

* الـشرك الأكـبر صـاحبه خالـد مخلـد في النـار. وصـاحب الشرك الأصغر غير خالد مخلد في النار.

* الشرك الأكبر صـاحبه كـافر خـارج مـن الملـة. و الـشرك الأصغر لا يخرج من الملة

* الـشرك الأكـبر يحـبط العمـل جميعـه . والـشرك الأصـغر يبطل العبادة التي وقع فيها، و لا يبطل جميع العمل.

* الـشرك الأكـبر لا يغفـره الله سـبحانه وتعـالى. واختلـف العلماء في الشرك الأصغر هـل يُغفـر أمـا لا يغفـر بخـلاف الـشرك الأكبر فهو محل اتفاق عندهم.

هذا ضابط في التفريق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر!

قال ابن القيم رحمه الله: "وأما الشرك الأصغر : فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : "من حلف بغير الله فقد أشرك"[١].

وقول الرجل للرجل : ما شاء الله وشئت.

أو هذا من الله ومنا.

و أنا بالله وبك .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٢٥)، وابوداود في كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهة الحلف بالآباء، حديث رقم (٣٢٥١)، والترمذي في كتاب النذور والإيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، حديث رقم (١٥٣٥)، ،عنده: "... فقد كفر أو أشرك". والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة تحت رقم (٢٠٤٢)، وفي الإرواء تحت رقم (٢٥٦١).

وقال الترمذي عقب الحديث: "قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ وَفُسِّرَ هَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ قَوْلَهُ: "فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ "، عَلَى التَّغْلِيظِ. وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ عُمَرَ يَقُولُ: وَأَبِي وَأَبِي فَقَالَ: أَلَا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ. وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ قَالَ فِي حَلِفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ الرِّيَاءَ شِرْكٌ"، وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذِهِ الْآيَةَ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا الْآيَةَ قَالَ لَا يُرَائِي"اهـ

و مالي إلا الله وأنت.

أ و بأنا متوكل على الله وعليك.

و لولا أنت لم يكن كذا وكذا.

أوقد يكون هذا شركا أكبر بحسب قائله ومقصده وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له : ما شاء الله وشئت: "أجعلتنى لله ندا قل : ما شاء الله وحده"[1]. وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

ومن أنواع الشرك : سجود المريد للشيخ فإنه شرك من الساجد والمسجود له. والعجب : أنهم يقولون : ليس هذا سجود وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراما وتواضعا، فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ما سميتموه فحقيقة السجود : وضع الرأس لمن يسجد

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٨٣)، (٢/ ٣٤٧)، وصححه لغيره محققو المسند (الرسالة ٤/ ٣٤١، ٥/ ٢٩٧).

له ،وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر كله وضع الرأس قدامه.

ومن أنواعه : ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة، وهذا سجود في اللغة وبه فسر قوله تعالى : ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾ (البقره : ٥٨) أي منحنين، وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة على الأرض، ومنه قول العرب : سجدت الأشجار: إذا أمالتها الريح.

ومن أنواعه : حلق الرأس للشيخ، فإنه تعبد لغير الله، ولا يتعبد بحلق الرأس إلا في النسك لله خاصة.

ومن أنواعه : التوبة للشيخ، فإنها شرك عظيم، فإن التوبة لا تكون إلا لله كالصلاة والصيام والحج والنسك فهي خالص حق الله وفي المسند : "أن رسول الله أتى بأسير **فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ**

إِلَيْكَ وَلَا أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ"[1]. فالتوبة عبادة لا تنبغي إلا لله كالسجود والصيام.

ومن أنواعه : النذر لغير الله، فإنه شرك وهو أعظم من الحلف بغير الله، فإذا كان "من حلف بغير الله فقد أشرك"[2]، فكيف بمن نذر لغير الله؟! مع أن في السنن من حديث عقبة بن عامر عنه: "النذر حلفة"[3].

ومن أنواعه : الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع، والذل لغير الله، وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى، والغنية بذلك عن حمده

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٣٥) عَنِ الْحَسَنِ عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِأَسِيرٍ الحديث. والحسن لم يسمع من الأسود، وهو يدلس ويرسل. وضعفه محققو المسند في طبعة الرسالة.

(٢) سبق تخريجه. وهو حديث صحيح.

(٣) أخرج مسلم في كتاب النذر باب في كفارة النذر حديث رقم (١٦٤٥)، بسنده عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ". وهو بمعناه، فإن النذر حلفة يعني يمين.

سبحانه، والذم والسخط على ما لم يقسمه، ولم يجر به القدر، وإضافة نعمه إلى غيره، واعتقاد أن يكون في الكون ما لا يشاؤه.

ومن أنواعه : طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فضلا عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته ،أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده،... فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببا لإذنه وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك، والميت محتاج إلى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ إذا زرنا قبور المسلمين : أن نترحم عليهم ونسأل لهم العافية والمغفرة"، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة واستقضاء الحوائج والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم

أوثانا تعبد وسموا قصدها حجا واتخذوا عندها الوقفة، وحلق الرأس؛ فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد ونسبة أهله إلى التنقص للأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك وأولياءه الموحدين له الذين لم يشركوا به شيئا؛ بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم، ولله خليله إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ (إبراهيم: من الآية ٣٥- ٣٦)، وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده؛

فجرد حبه لله.

وخوفه لله.

ورجاءه لله.

وذله لله.

وتوكله على الله.

واستعانته بالله .

والتجاءه إلى الله .

واستغاثته بالله .

وأخلص قصده لله، متبعا لأمره متطلبا لمرضاته.

إذا سأل سأل الله .

وإذا استعان استعان بالله .

وإذا عمل عمل لله؛

فهو لله وبالله ومع الله .

والشرك أنواع كثيرة لا يحصيها إلا الله ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع"اهـ[١].

فإذا عرفنا حقيقة التوحيد .

وعرفنا حقيقة الشرك وما يقابل منه كل نوع من أنواع التوحيد.

وعرفنا أن الشرك على نوعين شرك أكبر، وشرك أصغر.

وعرفنا الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر.

وتذكرنا ما سبق من أن الكفار كانوا يعتقدون بتوحيد الربوبية وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت:٦١) .

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٤- ٣٤٧)،

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت:٦٣).

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان:٢٥).

وقال ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر:٣٨).

فهم مقرون بأن الله ﷻ هو الذي يدبر هذا الكون وهو الذي يقوم بالربوبية فيه للخلق جميعًا، ومع ذلك الله وصفهم بأنهم كفار، حتى مع قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾، ومع قوله في التلبية: **لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك؛**

مع هذا وصفهم الله بأنهم مشركون.

ووصفهم بأنهم كافرون .

وبأنهم كفار يستحقون الخلود في النار؛

إذا عرفت هذه الأمور وتبصرت في حال الناس اليوم فهل تنفع الناس كلمة لا إله إلا الله، بدون توحيد العبادة؟!

هل ينفعهم قولهم هذه الكلمة، والحال أنه يصدر منهم أمور تنافي هذه الكلمة، من صرف العبادة لغير الله فسواءً في توحيد الربوبية أو في توحيد الألوهية أو في توحيد الأسماء والصفات؟!

الجواب: لا ما تنفعهم كما لم ينفع الكفار توحيد الربوبية!

ولذلك يقول المصنف يرحمه الله: "فإذا عرفت هذا!

وعرفت: أن دعاءهم الصالحين، وتعلقهم عليهم، أنهم يقولون: ما نريد إلا الشفاعة، وأن النبي ﷺ قاتلهم ليخلصوا الدعاء لله، ويكون الدين كله لله".

يعني ما قصه الله علينا من قولهم، في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ

الـدِّينُ الْخَـالِصُ وَالَّـذِينَ اتَّخَـذُوا مِـن دُونِـهِ أَوْلِيَـاء مَـا نَعْبُـدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهَّ زُلْفَى إِنَّ اللهَّ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيـهِ يَخْتَلِفُـونَ إِنَّ اللهَّ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر:٣).

وما جاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُـولَ اللهَّ صَـلَّى اللهُّ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَالَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّـى يَـشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُّ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهَّ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَـاةَ فَـإِذَا فَعَلُـوا ذَلِـكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَـقِّ الْإِسْـلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَـلَى اللهَّ"

وأن النبي ﷺ قاتلهم ليخلص الدعوة إلى الله.

وليس المراد أن يشهدوا بألسنتهم بل أن يـشهدوا بألـسنتهم ويعتقدوا ذلك في قلوبهم، فليس مقـصود الرسـول ﷺ أن يقولـوا هذه الكلمة بألـسنتهم، إنـما المقـصود أن يقولـوا هـذه الكلمـة مـع العلم والمعرفة بمعناها وتحقيقها والعمل بمقتضاها.

فالمطلوب :

العلم بمعناها.

والعمل بمقتضاها.

والمجافاة عن كل شيء ينافيها.

ولذلك المنافقون قالوها بألسنتهم وأظهروا الإسلام ولكنهم، في الدرك الأسفل من النار.

"فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام".

قال المصنف يرحمه الله: " وعرفت: أن هذا هو التوحيد، الذي أفرض من الصلاة والصوم، ويغفر الله لمن أتى به يوم القيامة، ولا يغفر لمن جهله، ولو كان عابداً؛

وعرفت: أن ذلك هو الشرك بالله، الذي لا يغفر الله لمن فعله، وهو عند الله أعظم من الزنا، وقتل النفس، مع أن صاحبه يريد به التقرب من الله.

ثم مع هذا:

عرفت أمراً آخر، وهو: أن أكثر الناس – مع معرفة هذا الدين – يسمعون العلماء، في سدير، والوشم، وغيرهم، إذا قالوا: نحن موحدون الله، نعرف ما ينفع ولا يضر إلا الله، وأن الصالحين لا ينفعون ولا يضرون.

وعرفت أنهم لا يعرفون من التوحيد، إلا توحيد الكفار، توحيد الربوبية؛

عرفت: عظم نعمة الله عليك.

خصوصاً إذا تحققت: أن الذي يواجه الله، ولا عرف التوحيد؛ أو عرفه ولم يعمل به، أنه خالد في النار، ولو كان من أعبد الناس، كما قال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ (المائدة: ٧٢)، و الله أعلم، وصلى الله على محمد، وآله، وصحبه، وسلم.

الشرح :

قول المصنف يرحمه الله: "ولا يغفر لمن جهله، ولو كان

عابداً" فيه تنبيه على مسألة العذر بالجهل، ومراد المصنف يرحمه الله: أن من كانت لديه القدرة على التعلم، ومعرفة التوحيد، ومع ذلك تساهل أو أعرض، أو تكاسل في تعلمه، وعمل بالشرك وبما يناقض التوحيد، من صرف العبادة لغير الله، فإنه لا يعذر بالجهل، ولو كان أعبد الناس!

فمن جهل معنى التوحيد لا يعذر.

من قال أنا أقول: لا إله إلا الله ويطوف بالقبر. نقول له: أنت تجهل معنى لا إله إلا الله، أنت أصلًا ما ثبت إسلامك لا تعذر بهذا الجهل.

ما معنى أن تقول: أنا مسلم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأنت تذبح للقبور وتنذر لها وتطوف بها ما معنى هذا؟

أنت لا تُعذر بجهلك لذلك هو يقول: "ولا يغفر لمن جهله".

ومحل عدم العذر بالجهل هنا لمن أمكنه طلب العلم ومعرفة التوحيد ثم هو يعرض ويتولى أو يتساهل ويتكاسل!

وهذه هي مسألة العذر بالجهل.

والعلماء أئمة السنة يقررون أن مسائل الدين الأصلية التي هي مقتضى الدين كتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله بالأمور التي ذكرناها لكم سابقًا يقولون: لا يعذر فيها بالجهل لأن هذا هو الدين، هذا هو الإسلام، لا يعذر فيها بالجهل، إذا أمكنه معرفة الحق وطلبه ومع ذلك هو يتمادى في الشرك والعمل بما يخالف التوحيد.

وفرق عند أهل العلم بين المسائل المعلومة من الدين بالضرورة، فإنه لا يناسبها أن يعذر فيها بالجهل، إذ يمكنه العلم والمعرفة بطلب الحق والسؤال عنه.

وبين المسائل التي فيها غموض وأدلتها غير ظاهرة، فإنه قد يسعى المرء للعلم بها و لكن تخفى عليه!

وأهل السنة والجماعة متفقون على أصل : أن الجهل مانع من الحكم بالتكفير. واختلافهم في تحقيق المناط.

فإن الجهل المعتبر عند الجميع هو الجهل الذي أدى صاحبه ما هو واجب عليه من طلب الحق ومعرفته، وكان هذا هو مبلغه من العلم، بعد بذل السبل المتيسرة له!

أمّا الجاهل الذي يستطيع رفع سمة الجهل عنه، ومع ذلك يتولى ويعرض ويتساهل ويتهاون فهذا لا يعذر بجهله، لأنه أمكنه رفعه وهو الذي قصّر!

وحين تنزيل العلماء هذه المسألة على الواقع قد يختلفون في التنزيل مع عدم اختلافهم في التأصيل!

وترى أن حال المسلمين في بعض البلاد أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ومع ذلك يطوفون بالقبور ويذبحون لها، ويفعلون ما هو من عمل المشركين، فإذا نظرت في حكمهم عند أهل العلم رأيت منهم من يحكم بكفرهم بدون

تعيين، ومنهم من لا يحكم بكفرهم!

فمن لم يكفر يقول: لأنهم يرون العلماء في بلادهم الذين يسمون بالعلماء يفعلون هذه الأفعال، يطوفون بالقبور ويأتون إلى المشاهد، ويأتون إلى الأضرحة، ويفعلون هذه الأمور التي هي من الشرك، والعوام يفتحون أعينهم أن هذا عالم كبير فالشيخ يرى أن هؤلاء يعذرون بالجهل، من جهة أن حال الناس هؤلاء يقتضي عذرهم بالجهل، لأن هذا مبلغهم من العلم!

ومن يكفرهم يقول: هؤلاء لا يعذرون بالجهل لماذا؟ لأن هؤلاء يمكنهم معرفة الحق من وسائل الإعلام : من الجرائد ، والمجلات والإذاعة والتلفزيون؛ يسمعون أن هذه الأمور كفر وشرك، فلا يعتبر حالهم هذا حال جهل يعذرون به.

فهذا منهم من باب الاختلاف في التمثيل والتنزيل لا في التأصيل إذ اتفقوا على أنه لو أسلم إنسان وهو في مجاهل إفريقيا أو في بلاد بعيدة لا يبلغه الدين الحق، وليس هناك من يعلمه

التوحيد، وأمور الدين؛ أنه يعذر!

وإذا جاء المرء بالشرك وما ينافي توحيد العبادة، فإنه مشرك، ولو كان عابدًا ما تنفعه عبادته.

وتذكر أن هذا الدين يقوم على أصلين:

ألا نعبد إلا الله.

وإلا نعبد الله إلا بما شرع.

وقول المصنف يرحمه الله: " وعرفت: أن ذلك هو الشرك بالله، الذي لا يغفر الله لمن فعله، وهو عند الله أعظم من الزنا، وقتل النفس، مع أن صاحبه يريد به التقرب من الله"اهـ

أقول: قال ابن القيم رحمه الله: "وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ (التوبه : ٢٨)، وقوله تعالى في حق اللوطية : ﴿ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه

من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين﴾ (الأنبياء : ٧٤)، وقالت اللوطية : ﴿أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ (النمل : ٥٦)، فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس وأن لوطا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له. وقال تعالى في حق الزناة : ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات﴾ (النور : ٢٦).

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان : نجاسة مغلظة ونجاسة مخففة؛

فالمغلظة : الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز و جل فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

والمخففة : الشرك الأصغر كيسير الرياء والتصنع للمخلوق والحلف به وخوفه ورجائه ونجاسة الشرك عينية؛

ولهذا جعل سبحانه الشرك نجسا بفتح الجيم ولم يقل : إنما المشركون نجس بالكسر، فإن النجس عين النجاسة.

والنجس بالكسر هو المتنجس فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجس والبول والخمر نجس فأنجس النجاسة الشرك كما أنه أظلم الظلم فإن النجس في اللغة والشرع هو المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد منه بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى فضلا أن يخالط ويلابس لقذارته ونفرة الطباع السليمة عنه، وكلما كان الحق أكمل حياة، وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم ونفرته منه أقوى؛

فالأعيان النجسة :

إما أن تؤذي البدن.

أو القلب .

أو تؤذيهما معا.

والنجس قد يؤذي برائحته وقد يؤذي بملابسته وإن لم تكن له رائحة كريهة.

والمقصود : أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة وتارة تكون معنوية باطنة فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها كما يتأذى من شم رائحة النتن ويظهر ذلك كثيرا في عرقه حتى ليوجد لرائحة عرقه نتنا فإن نتن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره والعرق يفيض من الباطن ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق وكان رسول الله ﷺ أطيب الناس عرقا.

قالت أم سليم وقد سألها رسول الله عليه الصلاة و السلام عنه وهي تلتقطه: "هو من أطيب الطيب"(١، فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد والنفس الطيبة بضدها فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نفحة

---

(١)

مسك وجدت على وجه الأرض ولتلك كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض .

والمقصود : أن الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له وأشدها مقتا لديه ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه. وأخبر أنه لا يغفره وأن أهله نجس ومنعهم من قربان حرمه وحرم ذبائحهم ومناكحتهم وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وأن يتخذوهم عبيدا وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية وتنقيص لعظمة الألهية وسوء ظن برب العالمين كما قال تعالى : ﴿ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا﴾ (الفتح : ٦) فلم يجمع على أحد من

الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده؛ ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه! وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلا وندا يحبه ويخافه ويرجوه ويذل له ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته؟!

قال تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾ (البقره : ١٦٥)، وقال تعالى : ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ (الأنعام : ١) أي يجعلون له عدلا في العبادة والمحبة والتعظيم، وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبني آلهتهم وعرفوا وهم في النار أنها كانت ضلالا وباطلا فيقولون لألهتهم وهم في النار معهم : ﴿تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين﴾ (الشعراء : ٩٨).

ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا : إن آلهتهم خلقت السموات والأرض وأنها تحيي وتميت وإنما سووها به في محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم إياها كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام.

ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين وما ذنبهم إلا أن قالوا : إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبدا، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع،

فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى؛

ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين : ﴿أإفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين﴾ (الصافات : ٨٦)، وإن كان المعنى ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له ندا فأنت تجد تحت هذا التهديد : ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؛

فإن المشرك :

إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم من وزير أو ظهير أو عون وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه فقير إليه بذاته.

وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك.

وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة .

أولا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم.

أو لا يكفي عبده وحده .

أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع، وانتفاعه به وتكثره به من القلة وتعززه به من الذلة.

أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق.

أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم حتى يرفع الوسائط ذلك.

أو يظن أن للمخلوق عليه حقا، فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك، بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته.

وكل هذا تنقص للربوبية وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة الله تعالى وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه من قلب المشرك، بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف

والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه لكفى في شناعته!

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه.

والتنقص لازم له، ضرورة شاء المشرك أم أبى؛

ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم ويجعله أشقى البرية فلا تجد مشركا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه وإن زعم أنه يعظمه بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعا إلا وهو متنقص للرسول ﷺ وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة؛

فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب.

أو يزعم أنها هي السنة إن كان جاهلا مقلدا وإن كان مستبصرا في بدعته فهو مشاق لله ورسوله ﷺ.

فالمتنقصون المنقوصون عند الله تعالى ورسوله وأوليائه : هم أهل الشرك والبدعة، ولا سيما من بنى دينه على أن كلام الله ورسوله أدلة لفظية، لا تفيد اليقين ولا تغني من اليقين والعلم شيئا!

فيا لله للمسلمين أي شيء فات من هذا التنقص.

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى خشية ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم، فقد جاء من التنقص بضد ما وصف الله سبحانه به نفسه من الكمال.

والمقصود : أن هاتين الطائفتين (أهل الشرك وأهل البدعة) هم أهل التنقص في الحقيقة بل هم أعظم الناس تنقصا لبس عليهم الشيطان، حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال، ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب الله تعالى قال تعالى : ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ (الأعراف : ٣٣).

فالإثم والبغي قرينان .

والشرك والبدعة قرينان"اهـ[1].

وقول المصنف رحمه الله: " ثم مع هذا:

عرفت أمراً آخر، وهو: أن أكثر الناس – مع معرفة هذا الدين – يسمعون العلماء، في سدير، والوشم، وغيرهم، إذا قالوا: نحن موحدون الله، نعرف ما ينفع ولا يضر إلا الله، وأن الصالحين لا ينفعون ولا يضرون، وعرفت أنهم لا يعرفون من التوحيد، إلا توحيد الكفار، توحيد الربوبية؛ عرفت: عظم نعمة الله عليك، خصوصاً إذا تحققت: أن الذي يواجه الله، ولا عرف التوحيد؛ أو عرفه ولم يعمل به، أنه خالد في النار، ولو كان من أعبد الناس، كما قال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ (المائدة: ٧٢)، و الله أعلم، وصلى الله على محمد، وآله، وصحبه، وسلم"اهـ.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/٥٩-٦٣).

الـشرح : يقـول المـصنف يرحمـه الله إذا عرفـت التوحيـد والشرك وما قدمته لك، فاعلم أن أكثر النـاس لا يعرفونـه، حتـى بعض من يسمى بالعلماء، إذا قالوا: نحن موحدون الله، نعرف أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، وأن الـصالحين لا ينفعـون ولا يـضرون، ومـع ذلـك تـصدر مـنهم أقـوال وأفعـل تنـافي توحيـد العبـادة لله، وإخلاص العبادة له سبحانه!

عرفـت أنهـم لا يعرفـون توحيـد الكفـار، يعنـي: توحيـد الربوبية.

إذا عرفت ذلك؛ عرفت كبر نعمة الله عليك، يعني: عرفت أن نعمة الله عليك عظيمة، أن الله عرفك هذا التوحيـد، وعلمـك إياه وألهمك رشدك فيه.

ومقابل هذه النعمة ثلاثة أشياء :

الأول: الاعتراف للمنعم بنعمته عليك.

الثاني: شكر هذه النعمة ومن شكرها شكر من كان سببًا في

وصولها إليك.

الثالث: صرف هذه النعمة فيما يرضي المنعم عليك فيها.

ولذلك شكر النعمة أن تستعملها في طاعة الله.

شكر النعمة ألا تصرفها في معصية الله ﷻ،

وقوله : "خصوصًا إذا تحققت أن الذي يواجه الله ولا يعرف التوحيد أو عرفه ولم يعمل به أنه خالد مخلد في النار"اهـ، فيه إشارة إلى الضوابط التي تفرق بها بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وذلك بتمييز الشرك الأكبر؛

فذكر أن صاحبه خالد مخلد في النار

وأن هذا الشرك لا يغفره الله ﷻ. ولو كان من أعبد الناس.

وأن عمل صاحبه كله محبط، ولو كان مكن أعبد الناس، ولو سماه الناس عالماً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥).

بقيت القضية الأخيرة وهي التي ذكرناها في ضابط الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

أن كفره كفر أكبر مخرج من الملة، وهذا معلوم من خلال جميع الكلام قال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ (المائدة: ٧٢).

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.